جائزة البوكر العربية للرواية اثارت ضجة صاخبة كما يقول حمزة عليوي وهي تفتح الباب امام مناقشة علاقة الجوائز الادبية العربية بالسلطة وعلاقة البوكر بقراءة المشهد الروائي العربي كما ان الكاتب يرى عيوبا في آلية التقييم ويعدها تدميرا منهجيا للجائزة ولقيمة الرواية العربية وهو في مقالته يسلط الضوء على ايجابيات الجائزة وسلبياتها.

المدى الثقافي

عقل الجائزة: البوكر مثلاً... حرائق الثقافة وروائح البلاد

الرواية العربية خارطة أخرى للنشر والتقييم

١-٢

حمزة عليوي

الضجّة الصاخبة التي أثارتها جائزة البوكر للرواية العربية العام الماضي لم ترافق، من قبل، أيّة جائزة عربية في الشعر والرواية على حد سّواء. إذ لم يسبق للعرب أن نجحوا في اختراع جائزة مُقنعة تفلح في اجتذاب الشروط المُحققة للنجاح، شرط الاستقلال عن المؤسسة السياسية الرثّة يتقدّم دائماً، وهو الدافع الأهم لتوفر الشروط الأخرى، شرط الكفاءة، مثلاً، على صعيد لجنة التحكيم، وتالياً، ربما، شرط النزاهة. جائزة صدام، جائزة مُبارك، ومثلها الجوائز التقديرية الممنوحة في غير بلد عربي عن وزارة الثقافة، هذه الجوائز حملت، دائما، رائحة غير طيّبة يمكن لأيّ أنف لم تغرّه النيران المُشتعلة عن شمّ رائحة الجسد المتفحّم في الأقبية المُظلمة والسجون المُتسعة، باستمرار، في الجغرافيا الواقعية لبلاد العرب. حرائق الثقافة صيغة أخرى لا أظنّ أن أحداً من المُتأنّقين، قد فكّر بها، وهو يصعدُ، مع آخرين، إلى المنصّة ليُعلن اسم الفائز بجائزة الثقافة في أيّ بلد عربي. الراحل «يوسف إدريس»، مثلاً، كان أول من حصل على جائزة صدام للآداب. حضر إلى بغداد نهاية الثمانينيات وسط حفاوة ملحوظة من السلطة، آنذاك، مُمثلة بالحرس القديم من رجالات وزارة الثقافة. أشك أن «إدريس»، وهو القاص المحترف ذو السمعة الطيّبة، قد فكّر بأحد آخر غير المتجمهرين حوله. هكذا قال لشابٍّ ناحل انتحى به جانباً وعاتبه على مجيئه إلى بلاد تحترق رويداً رويداً، مُخبراً إيّاه أن هناك رائحةً أخرى تختلف عن العطور التي ضُجّت بها القاعة التي شهدت فوزه بالجائزة، وأناساً آخرين لا تتلاءم مؤخّراتهم مع المقاعد الوثيرة في قاعة الحفل. آخرون إلتقاهم «إدريس» فيما بعد على عُجالة من أمره وأمرهم؛ فقد ذهب إلى بلاده، فيما ذهبَ أولئك الشباب إلى جهنّم حمراء لم يعشها «إدريس»، ربما يكون قد سمع بهَا وكتب عنها، جهنّمٌ تتسع لكل الأسماء والصيغ: الحرب، القمع ومن قبلهما المنفى والقائمة باتّساع. المؤكّد أن «إدريس» الذي هزّ رأسه، وهو يقول «لم أكن أعرف!!»، كان قد نسي الوجوه الصفر، ترك قصصهم عن القمع والحروب الباذخة والموت المجاني الموزّع بعدالة نادرة على الجميع وغادر، حمل حقيبته المُعبّأة بقيمة الجائزة (ثلاثون ألف دولار) وأبقى لنا الرائحة النتنة.

«لم أكن أعرف!!» صيغة بالغة الإيجاز تختصر المسافة الشاسعة بين قيمة الجائزة ورائحتها. أغلب الظن أن هذه الصيغة تحضر، دائماً، في مُخيّلة المُثقف العربي وهو يتسلّم جائزته في بلدان احترفت القمع. هكذا يبدو أرشيف الثقافة عندنا مُمتلئ بقصص مُتشابهة، قصّة «فتحي غانم»، مثلاً لا تختلف كثيراً عن قصة «يوسف إدريس» سوى أن الأول رضي أن تُنتزع الجائزة من العراقي المرموق «فؤاد التكرلي». كان «غانم» صديقاً شخصياً لصدام. قصة أخرى مُشبعة برائحة نتنة أسرف لاحقاً «يوسف القعيد» بسردها، وأكملها، من دون قصد، «عبد الإله أحمد» العضو الثاني في لجنة التحكيم، آنذاك، بعد سقوط صدام والبعث.

ولكن ما الجائزة، وما قيمتها؟! سؤال يقفز الفائزون عن شقّه الأول لبداهته، فيما تتعدد إجاباتهم عن الشق الثاني. وفي طليعتها أنّ الجائزة تتضمن تكريماً للفائز، بل واعترافاً صريحاً به كأديب مُكرّس في مجاله. صاحب «النمور في يومها العاشر» قال يوماً إن الجوائز تأتي في غير محلّها. وهو يقصد أن الحاصلين عليها هم الشيوخ من الأدباء. وبعبارة أقرب إلى الواقع، أنه يتحدّث عن المال المُرافق للجائزة. هو بيت القصيد، وهو، كذلك، قيمة التكريم. ولا بأس طالما أنه سُنّة الثقافة وجوائزها في العالم أجمع، الشعوب المتحضّرة قبل المتخلّفة تأخذ بها، لنتذكّر «نوبل» الأرقى عالمياً فرقاً عن أخريات، منها جائزةٌ تُمنح في الغرب لأسوأ نص أدبي تبلغ قيمتها عشرون ألف دولار «تُعادل قيمة جائزة الشعر في القاهرة!!». إذن للمال قيمة استثنائية في أيّة جائزة عربية أو عالمية. وإن اقتربنا أكثر من واقع الجوائز العربية، نكون بازاء حقيقة بسيطة يعرفها الجميع، تقول إن حجم الجائزة يُقاسُ، غالباً، بمقدار المال الممنوح «تبدو جائزة نجيب محفوظ للرواية استثناءً فريداً يستحقّ الثناء!!». ويزيد من أهمية المال وحضوره في الجوائز العربية الواقع الاقتصادي الرّث للمُثقّف العربي، هو بحاجة دائمة إلى نوع آخر من الرعاية، بدأتها الدولة القومية في عهد «عبد الناصر» وهي الآن بيد المؤسسات الخاصة كما كتب «محمد بدوي». المال الذي شتمه ذات يوم الراحل الكبير «السيّاب» بصيغة لافتة «المال شيطان المدينة»، ربما يكون المحور الأهم والمسكوت عنه، أيضاً، في مُجمل الصراعات الصاخبة بين المُثقّفين العرب. مال الجائزة ليس غيره هو ما يُغري الفائزين بالمديح، ويُثير في الخاسرين شهيّة الشتم. لا توجد صيغة ثالثة، فإما أن تكون فائزاً أو خاسراً، ثنائية تحكم الداخلين في دائرة الجائزة، وربما من في الخارج منها كذلك، وتُنسيهم، إلى حين، معايير أخرى لا بُدّ منها في أيّة جائزة، تخصُّ منها معيارين شغلا النقاشات الثقافية الكبرى في العالم العربي حُقباً مُتتالية، الأول أخلاقي والآخر ثقافي. الغريب أن المعيارين يتحكّم بهما، في العميق البعيد، مال الجائزة، حقاً أنهما يظهران بصيغتين مختلفتين، لكنهما، في النهاية، يرتدّان إلى أصل واحد، فمن يملك المال هو الذي يُسمّي أخلاقيات التحكيم، تاركاً للجنة إمكانات شتّى للإجابة عن السؤال المُلغز: لمن نعطي الجائزة، أو ببساطة مُحيّرة، من يستحق الجائزة؟!

«البوكر»... وهي أرفع جائزة عربية للرواية «لماذا لا نُسمّي الأشياء بأسمائها ونقول إن البوكر هي الجائزة الأغلى على صعيد الرواية!!». هذه الجائزة أرادت فضّ الاشتباك المُدمّر بين إرث «الجائزة» الأخلاقي، ربما، و«معاييرها» المُرتبكة في العالم العربي، بأن هربت إلى الأمام، فقد تخلّصت، بلباقة لافتة، من تعلّق الجائزة عندنا بالدولة – السلطة، والأخيرة لا تمتلك أيّة شرعية سوى منطق القوة والعُنف. حدث هذا عندما تركت تمويل الجائزة إلى مؤسسة أهلية خاصة تُعنى بشؤون الثقافة، وهي مؤسسة الإمارات. إذن... الخطوة الأولى بالاتجاه الصحيح، تحرير فكرة «الجائزة» عندنا من هيمنة «الدولة – السلطة» وانحيازها المُعلن ضدّ من يُعاديها ومُناصرة من يؤيّدها. حقّاً إنها تظلُّ خطوة أولى في طريق وعر وطويل ولا بُدّ أن تلحقها، بالضرورة، خطوات عديدة، تنتهي باجتراح مؤسسات ثقافية راسخة لا تكون خطاً خلفياً للدولة مثلما هو حال الثقافة ومؤسساتها في الغرب. وفي هذا الصدد نُلحظ أن خطوة مؤسسة الإمارات ليست جديدة كليّاً، فقد سبقتها مؤسسات خليجية أخرى. لكن الجديد، بل المأثرة التي تُحسب لهذه المؤسسة، أنها ربطت جائزتها باسم ثقافي عالمي طارت شهرته بعيداً حتى وصلت إلينا أخيراً، وهي جائزة «البوكر» البريطانية العريقة في الرواية، وعمدت إلى اعتماد شروط النُسخة البريطانية من الجائزة، وأهمها أن تتولّى دور النشر وحدها مهمّة الترشيح لنيل الجائزة. وهي خطوةٌ أخرى بالاتجاه السليم أيضاً. ولندع، هنا، خُزعبلات يحلو لبعض مُثقفينا أن يُردّدها من حين لآخر كأن يصف «البوكر» العربية بأنها «استعمار ثقافي» لمجرّد أن اثنين، أو ثلاثة، من أُمناء الجائزة هم من الأجانب البريطانيين. ولا أدري لماذا نحنُ مُعقّدون من تقييم الأجنبي لنا، وتالياً، لأدبنا، ثمّ أليست الرواية، وهي مادة الجائزة، وليدة المُخيّلة الاوروبية، ألم نفشل، قرناً كاملاً، في اختراع جائزة تواكب بآليّاتها ما حققته الرواية العربية من إنجازات لاقت استحسان العقل الأوروبي الاستشراقي؟!

نعم... هي خطوة في الاتجاه الأسلم، يُعزّزها اعتراف الأجنبي «الأوروبي غالباً» بترسّخ ظاهرة الرواية عندنا ونُضجها، ومن ثمّ، ازدهارها بدليل موافقته، بل وتبرُّعه باسم أهم جائزة عالمية في الرواية بعد «نوبل»، وإن كانت الأخيرة غير متخصصّة بالرواية فرقاً عن الأولى، وفي الحقيقة إن البوكر للرواية العربية تستحق نقاشاً أكثر جديّة يقفزُ بعيداً عن ترّهات من قبيل أن رئيس لجنة التحكيم المانحة للجائزة، بطبعتها الأولى، لا يظهر للملأ بصيغة رسمية، فهو يرتدي الحذاء الرياضي مثلاً. والأحرى أن نُجادل في المسؤولية الأخلاقية – الثقافية المُلقاة، حتماً، على عاتق لجنة التحكيم، وبضمنها، طبعاً، المُجادلة على أهليّة الرئيس، ليس لناحية مظهره الصادم، أو لأنه مسيحي، أو لكونه غير أكاديمي كما كتب «خالد الحروب» مُدافعاً، إنما أن نُجادل، وهو الأهم، في أهليّته كونه كاتب رواية لم تقرأ له سوى واحدة، وناقد لها مُتمرّس في دراستها، وهو أمرٌ لا يدّعيه الرئيس وليس ضمن اهتماماته، في الأقل نحن لم نقرأ له كتابة في إطار نقد أو مراجعة الرواية. من المؤسف أن أموراً كهذه، غالباً، ما أُحيطت بسياج صلد من الخصومات الشخصية المُضيّعة لجوهّر القضية، وهي أن هذه اللجنة تُشرف على أهمّ جائزة للرواية العربية، وأن من مهام عملها، بل من واجبها، أن تقول للعالم إن القائمة القصيرة تتضمّن أفضل ما كُتب ونُشر من نصوص الرواية العربية في الأعوام الثلاثة الماضية (الدورة الأولى)، والنصوص الأفضل هذا العام وكلّ عام إن استمرّت الجائزة، وأن الفائز بالبوكر هو، بالضرورة، أفضل روائي عربي. فهل فكرت لجنة التحكيم بهذا الأمر؟! لا أدري، لكني أزعم أن مسألة الأفضلية، في الأقل إعلامياً، هي أمرٌ حاصلٌ لا محالة؛ لأن فكرة الجائزة تقوم، بالأساس، في فرضيّة المسح الواسع لنصوص الرواية العربية.

«البوكر»، بهذا الوصف، خارطة أخرى للرواية العربية تتولّى رسمها جهتان: دور النشر، ولجنة التحكيم، فيما لا دور للكاتب غير أن يجلس في بيته وينتظر معرفة موقعه على الخارطة المفترضة. هذه هي الحقيقة ولا شيء سواها، إن البوكر تُعيد رسم الخرائط وتحديد المواقع! حقيقة صادمة ولا شكّ، ولكنها، ويا للمفارقة، حقيقة معروفة وربما لأجلها أُثيرت الضجّة. لنتأمّل الآن واقع هذه الخارطة، أو بأدق، مساهمة دور النشر في رسمها. أغلب الروائيين العرب أبدوا امتعاضهم من احتكار دور النشر للترشح إلى الجائزة. هو حق شخصي للكاتب أن يعترض طالما أن مصائر رواياته قد أصبحت بيد الناشر صاحب الحق الوحيد في اختيار النصوص للتنافس على الجائزة. ولكن في الاعتراض جانباً آخر يسكت عنه حتى كتّاب الرواية أنفسهم، نجده في تخوّفهم المشروع من استبداد «الناشر» العربي بحق النشر، ولاحقاً، حق الترشيح للجائزة، جاعلاً من الكاتب، وهو المُنتج الحقيقي للرواية، لعبةً تتقاذفها أهواء «ناشر» مشكوك بانتمائه الأصيل للمهنة. والنتيجةً ستكون، حتماً، خسارة الرواية التي وُجدت الجائزة، أصلاً، للاحتفاء بمُنجزها، وضَياع قيمة الجائزة.

«الناشر» مصطلح عربي حديث لم يجد طريقه إلى الاستعمال في عصور ازدهار التأليف عندنا، والغالب فيه أنه ترجمةً لكلمة «Publisher» الإنكليزية. ومثلما يحدث عندنا غالباً عندما نستورد «بضاعةً» من الغرب، فقد أفرغنا الكلمة من سياقها الثقافي – المعرفي، وعدنا بها إلى «الأصل» فيما استعمل العرب من اصطلاحات دالّة، الأشهر فيها كلمة «الناسخ»، وبرغم أنّ الكلمتين تُظهران تنافراً واضحاً في الدلالة اللغوية ما بين «النشر» و«النسخ»، فإنهما يُحيلان، ويا للعجب، إلى أصل واحد لم تُغيّره «الطباعة» كما لم تمسّه بشيء التّغييرات الثقافية الكبرى في القرن العشرين، إن «الناسخ» ومثله وريثهُ «الناشر» ليس سوى بائع آخر للكتاب. خلطة لا أعجب منها تشتبك فيها الأدوار وتضيع في معمعتها أصول المهنة ما بين «مكتبة» غائبة و«ناشر» يعتقد أن عليه أن يتقمّص دور الغائب. والمُحصّلة أن أصبح لدينا «ناشر» يجلس في «دُكّانه» وينتظر من يشتري منه الكتاب. هكذا ضاعت «المهنة» وتبدّد معها دور «الناشر» كصانع للثقافة. وهو الأصل في نشر الكتاب وتداوله بين الناس. في الغرب الذي استوردنا منه مظاهر «المهنة» مات دور «الرقيب» السياسي، وربما الأخلاقي، ولقد خاضت مجتمعاته معارك دامية لهدم الأسوار وطمر التابوات. قصة نعرف تفاصيلها أكثر من الغرب نفسه، وهي، بالتأكيد، لا تتلاءم مع قصصنا الكبيرة منها أو الصغيرة على السواء... ولا بأس، لا بأس أن نتذكّر أن حكايات الغرب المُسلية في ليالينا التعيسة قد صنعها، أو بعبارة أكثر لياقة، قد شذّبها الناشر الرقيب لتبدو عندنا في مُنتهى الجمال والتماسك. تلك حقيقة لم نُدركها بعد، نحن المهووسون بحرية لم نعش أدنى تفاصيلها: حقيقة ناشرُ الكتب عندما يكون الرقيب الوحيد على ما يصدر عنه من كتب. مُفارقة أخرى لم نعهدها من قبل، أن تؤدي الرقابة دوراً مهماً في صناعة الثقافة!! نتحدّث عن «الناشر» كمساهم جدّي في إنتاج النص الأدبي بدرجة رئيسة، والنصوص الأخرى أيضاً عبر وظيفة أهملتها، بتعسّف مُفرط، دور النشر العربيّة قاطبةً، يُسمّيها بعضهم عندنا بوظيفة «المراجع الأدبي» ترجمةً للكلمة الإنكليزية «Editor». وهي ترجمة غير دقيقة لوظيفة غير موجودة، مُطلقاً، في الثقافة العربية، وبالأخص في أعراف ودهاليز نشر الكتاب عربياً. هذه الوظيفة أدّت في الغرب دوراً عظيماً يحمده دائماً أغلب الأدباء والكُتّاب هناك. أمرٌ كهذا لم يدر في خلد أي كاتب رواية عربي، أن يتولّى «موظف» مغمور، لم يُعرف عنه امتهان «حرفة الأدب»، تصحيح وتشذيب نصّه الأدبي، وقد ينتهي الأمر برفض النص جملةً وتفصيلاً. هي سابقة خطيرة، أغلب الظن أن الأدباء العرب سيتّفقون، يميناً ويساراً ولا فرق، على شجبها، واصفين إيّاها بـ«الاعتداء الصارخ» على حرية التعبير. يُصدر الكاتب روايته، فيما تتولّى دار النشر تكليف «ناقد» بالكتابة عنها في صحيفة عربية مرموقة. هكذا تكتمل الدائرة، يُصبح الكاتب روائياً مُكرّساً، وببساطة تبيع الدار ما لديها من نسخ الرواية. لنتحدّث عن مواصفات الرواية الناجحة التي بالإمكان ترشيحها للبوكر، عدد الطبعات مثلاً «سيهزُّ كثيرون رؤوسهم إيجاباً!! »، عدد المقالات المكتوبة عن الرواية «سيهزُّ صموئيل شمعون رأسه فرحاً؛ لأن روايته (عراقي في باريس) قد حققت رقماً خُرافياً بعدد المقالات المكتوبة عنها!!»، ولكن ماذا بشأن الترجمة إلى اللغات العالمية؟! هي إحدى مواصفات النجاح ولا شك. وهي، كذلك، المعيار الأكثر جديّة لكفاءة الرواية وأصالة كاتبها؛ ليس لأن الأدب العربي، وفي طليعته الرواية، بحاجة ماسّة للانخراط بمسارات الآداب العالمية، وليس، كذلك، لأننا مُصابون بعقدة «الخواجه»، إنما لأمر آخر تكشف نهاياته عن فضائح ثقافية مُدوّية.

محطات ثقافية

القاهرة

تشكيليون من 13 دولة عربية في بينالي القاهرة الدولي الحادي عشر

يشارك ٨٤ تشكيليا من ٤٥ دولة منها ١٣ دولة عربية في بينالي القاهرة الدولي الحادي عشر الذي يفتتح يوم السبت بقصر الفنون في ساحة دار الأوبرا المصرية.

والبينالي الذي يستمر حتى ٢٠ شباط ٢٠٠٩ يشارك فيه تشكيليون عرب يمثلون المغرب والكويت والعراق والبحرين وقطر والسعودية وسوريا والاردن وفلسطين والجزائر ولبنان وليبيا إضافة الى مصر.

هذه الدورة تشهد «تغييرا شاملا» اذ تركز على نوعية الأعمال المشاركة بعد أن شهدت الحركة التشكيلية العالمية طفرات ومتغيرات كبيرة عبرت عن سمة العصر الذي أصبح يمر بحالة أشبه بالتمرد على كل ما هو مألوف وثابت ونمطي.»

ويحمل البينالي عنوان» الأزمة هي أزمة فهم الآخر والاتصال به.»

ويمنح البينالي أربع جوائز أكبرها (جائزة النيل الكبرى) التي تحمل اسم الملكة الفرعونية تي وقدرها ١٠٠ ألف جنيه مصري (نحو ١٨١١٦ دولارا) وثلاث جوائز أخرى قيمة كل منها ٣٥ ألف جنيه مصري.

برلين

رواية آل بودنبرك على شاشات السينما الألمانية

تعرض حاليا على شاشات السينما الألمانية رواية (آل بودنبرك) للروائي الألمانية الشهير توماس مان، والتي نال عنها جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٩ م .

ويأتي عرض هذه الرواية الصادرة عام ١٩٠١، كفيلم على شاشات السينما الإلماينة يؤكد بأنها على الرغم من مرور أكثر من قرن على تأليفها، إلا أنها ما زالت حتى يومنا هذا موضع اهتمام وجذب الكثير من القراء، لاسيما الشباب منهم، فهي تتحدث عن مصير الأجيال عبر العقود وما تتعرض له هذه الأجيال من ضربات موجعة من القدر المكتوب. تدور أحداث الرواية حول قصة القنصل جان بودنبرك، عميد عائلة بودنبرك، الذي كان يتمتع بالجاه والمكانة العالية في مدينة لووبك الألمانية.

وتعرض هذه الرواية صورة لعالم المال والاقتصاد، كما تسعى الرواية إلى التركيز على التحولات التجارية والاقتصادية التي شهدها مطلع القرن العشرين.

يذكر أن رواية (آل بودنبرك) استطاعت عند صدورها أن تحقق نجاحاً أسطورياً لا مثيل له جعلت من مؤلفها الروائي توماس مان نجماً عالمياً. وبالرغم من روح الكلاسيكية التي تتميز بها هذه الرواية إلا أنها مازالت محتفظة بمكانتها الراسخة بين روايات القرن العشرين في الأدب الألماني والعالمي

متاحف الهجرة والتباس المفاهيم

علي النجار

(فان تكن ديمقراطيا معناه اقتران فعلك باعتراف بأننا لا نعيش ابدا في مجتمع ديمقراطي بما فيه الكفاية)

– جاك دريدا–

إن كان الآخر لغزا ، أو سرا. فهذا هو الأمر الذي تحاول إجلاء غموضه نحو(اثنان وعشرين) متحفا أخذت تسميتها من مفردة(الهجرة) أو مقارباتها المفهومية . متاحف وجدت أمكنتها في العديد من الدول الأوروبية وشرق الولايات المتحدة وجنوب استراليا والبرازيل وتركيا. وشكل لغز التاريخ (أثنية أقوامه وهجراتها) وتعدد أنماط ثقافاتها وتنوعها. محتوياته المهمة. مثلما شكل الوازع البرغماتي النفعي جانبه الأخر.

لقد اكتظت هذه المتاحف، أو مشاريع العروض المشابهة. بتفاصيل أرشفة أنماط حياتية داخلية ومظاهر ووسائل سلوك متعددة لتقاطعات بشرية جنوبية شمالية، شمالية جنوبية، غربية شرقية، وشرقية غربية وعلى مدى التاريخ، سواء منه الأثري(القديم) أو الحديث. وصولا لزمننا الحالي الذي يأمل فيه المهاجر من تحقيق حلم إنسانيته. والذي يعمل في حراكه الجغرافي على أن يكون حقيقة فعلا.

لم يتشكل فعل الهجرة، وعلى امتداد التاريخ البشري، كنزوة أو نزهة. بل تشكل عبر سبل حياتية سلوكية لحراك حيوية جنسانية (الجنس البشري)، أو كسب معرفة تطورية، أو حلول لمأزق. وبطرائق سلسة أحيانا وأحيانا أخرى شرسة أو مراوغة(ولا يستثنى عصرنا الحديث من ذلك) فالمصالح الفردية والجماعية وخدع مبرراتها لا تنفصل عن روحها الاقتحامية الشرسة أحيانا كثيرة، ولا يهم تجاوزها على شرعة المبادئ والعهود والوثائق.

أصبح الفضاء سلوكا فردانيا بعد تحرر الفرد من أوهامه الجمعية المثالية وسلطة الميثولوجيا. وبات الفضاء وكما نوه عنه(باشلار) في (فينومينولوجيته×) ملغزا بممانعاته، وليس بحميميته لما قبل الحداثة العلمية. وكرست الهجرة وسط هذا الفضاء مصدات عازلة معظم الأحيان. وما محولات مشاريع هذه المتاحف إلا نوعا من قياس افتراضي لهذه الفضاءات من اجل معاينتها وصولا إلى مقاربات اجتماعية. فهي تبحث عن الوثيقة التاريخية والفولكلورية والدينية بكل أثنيتها. في مسعى ثقافي تبريري أو اندماجي بحدود ما.

تشكلت الديمقراطية في أوروبا عبر صراعات عنيفة ولقرون عدة، ما بين السلطة المدنية والدينية، وكان الإنسان ماثلا دوما حقلا للتجريب حتى زمن الاعتراف به قيمة خالصة تملك خصوصيتها وقرارها المستقل بعيدا عن سلوكيات السلطات الأوريغالشية. جوهر الديمقراطية هذا مكتسب. وهو مكسب أيضا خاضع للإدراك والنويات وان لم تكن كل النيات أو النوازع البشرية وحتى في اوروبا متعادلة أو متساوية عند المواطنين ما دامت هناك ثغرات من ترسبات أنماط فكرية تكرس التفرد والاستعلاء سلوكيا حياتيا. غالبا ما يكون فرديا وأحيانا جمعيا(بمعنى التجمعات وليس المجتمع، وان كان المجتمع في حقبة ما سواء قديمة أو حديثة). فان الآخر المهاجر مكرس هجرا. فالديمقراطية هي سلوك والتزام أخلاقي، وان فقدت قيمتها الخلقية فإنها تفرغ من قيمها السلوكية. وهذا ما يعاني منه المهاجر أو المغترب في عموم اوروبا. ولكون حاسة استشعاره غالبا ما تكون عالية، فهو قادر على تشخيص ذلك بكل يسر.

الاستعلاء الثقافي هو عث الإرث الحداثي الاوروبي ومنذ تعاطي فكرة المركزية الفكرية والثقافية . تمركزت الأنا الاوروبية حول شرنقتها ناسجة تراكما ليس من الهين اجتثاثه لمصلحة الآخر(الغريب جغرافيا) . بالوقت الذي لم يعد الآن لغزا بفضل العولمة الاتصالاتية. لكنه يبقى لغزا ما دام مختلفا، مغايرا بمقاييس ملتبسة، لكنها غالبا مكرسة، مع الإقرار في الوقت نفسه وبفضل ما بعد الحداثة: بأهمية التعددية الثقافية والمغايرة، لكن يبقى على الآخر(المهاجر) الكشف عن خباياه الذاتية منعا للبس. رغم كوننا كلنا مكشوفين الآن بفضل الميديا المعاصرة. وهذه إحدى فضائلها. وبرغم عدم يقينيتها أو مصداقيتها أحيانا بسبب من صناع القرار السياسي المهيمن أو المالكين لمفاصلها العاملة على مدار الأربع والعشرين ساعة في اليوم. وفي أرجاء المعمورة كلها. مع ذلك فلم يعد الغير أو الآخر غامضا. وان هو تعرض للكشف هكذا أو المكاشفة، فهو على أقصى ما يكون من علانية كشف في أقامات هجراته.

المثل العربي القديم والمشهور يقول: (اطلب العلم ولو كان في الصين). رحلة الصين هذه بالنسبة للعربي في ذلك الوقت لا تختلف عن رحلة(ماركو بولو) إلا قليلا في مشقتها. والعلم بهذا المعنى هو مهاجر، وما عولمتنا الثقافية الحالية إلا نوعا من هجرة جماعية للعقول والأشخاص. أثرى المهاجرون السويسريون إلى جزيرة ايليس الأمريكية الحياة الأمريكية العلمية والاقتصادية والموسيقية. هذا ما يؤكده أمين معرض(عدد صغير – تأثير كبير) الخاص بهجرة السويسريين في مشروع عرضه الأخير لمتحف الجزيرة للمهاجرين. وعدد(صغير تأثير كبير) شعار العرض، مقولة تنطبق بتفسيراتها على كل مشاريع إعادة البناء والأعمار لما بعد الحرب الاوروبية التي اعتمدت اليد المهاجرة، والمستوطنة لاحقا. وعلى نيات غالبية الهجرات، وخارج سبل إشكالية ترحالاتها. وان كانت المنفعة متبادلة، فعلينا الاعتراف بمن يقدم لنا منفعة. وتقبله آخرا ايجابيا، لا لغزا قابلا للإقصاء الصريح أو الضمني بعد انتفاء الحاجة.

تحكي مقتنيات متاحف الهجرة في اوروبا ، كما مثيلاتها في بقية العالم. حكايا المشقة والأمل. وطرق الرحلات لم تكن كلها متشابهة، ولم تكون. وتحمل الرحلات أو الهجرات تفاصيلها معها. طرائق حياة وأنماط تفكير وعبادات، أجناسا وألوانا. لكنها تضمر أيضا رغبة عارمة على مواصلة الحياة بشروط أفضل. وهذه الشروط إن وجدت فهما من الآخر(الأصل) لكان الدمج حضاريا أيسر. لكن يبقى العزل لفئات مهاجرة وارد في كل اوروبا. عزل (كيتو) هو مدمر لخطوط الوصل الاتصالي. واستثماره سلبيا بوسائل الأعلام يؤكد ذلك. فانحرافات السلوك الإجرامية(مثلا) موجودة في كل شعوب دول العالم، ولها نسب غير ثابتة لكنها مثبتة. والتأكيد أو التركيز على أي عنصر من تفاصيل انحرافية لمهاجر ما إعلاميا من دون غيره يكرس هذه العزلة(الدونية) وعلى الضد من النظام الديمقراطي وعدالته الاجتماعية التي هي عامل توازن هذه المجتمعات الغربية. وحوادث ضواحي باريس العام السابق شاهدا على ذلك.

نمط حياة سكان شمال السويد(السامي) مشابه لنمط حياة الشمال القطبي في بقاع أخرى من القطب. الشبه واضح في طرائق حياتهم ولباسهم وفولكلورهم الموسيقي. طرائق حياة للجغرافيا دور كبير في تثبيت خطوطها الواضحة. كذلك الحال بالنسبة لشعوب آسيا والشرق الأوسط أو أمريكا اللاتينية أو إفريقيا. وضوح خطوط مسالك حيواة هؤلاء البشر لم يعد لغزا. وقبولهم ليس بمعنى الآخر المختلف، بل بمعنى الجار المحاذي. هو الحل لتجاوز صيغة الغربة أو الهجرة. اختلاط الأجناس يغني فروع الثقافة العالمية تنافذيا واجرائيا ويعيد صيغة حلم المواطن العالمي بايجابياتها. الخيمة تصلح سكنا للصحراء لكنها أثرا مغتربا في المتحف الاوروبي والوثيقة الصورية أو الخطية تدلنا على كونها سكنا. فضاءات مغتربة هو المتحف، يقدم لزائره فحوى قصص اغتراباته بنيات الكشف عن السحر وبطلانه في آن واحد. متحف القصص الإنسانية المستعرضة بنية البوح العلني. يبقى أيضا مغتربا وسط حاضنه. واغترابه معلن من عنوانه قبل فحوى محتوياته. ومفهوم الاستعلاء المبطن بالمباهاة لا يقبل اللبس في التأويل. وان كانت المواطنة هي أس الحكم لأحقية السكن في جغرافيا ما مقتطعة من سطح الكرة الأرضية. فالمواطنة حق مشروع لكل البشر وفي كل اقتطاعات جغرافياهم. لكن الهجرة تكرس الجار الجغرافي غريبا في حالة استيطانه لغير جغرافيا مولده، مهاجرا يحمل أثقال غربته. هكذا هو الحال في قارة المفارقات اوروبا مبتكرة لائحة حقوق الإنسان. وان كان وما يزال البشر جيران بعضهم (سواء في الحيز الصغير أو الأكبر). فصفة أو مفهوم الهجرة يجب أن يعاد النظر في صياغاتها بما يناسب عالم القرية الصغير العولمي الجديد. ولا تقبل القرية بصيغتها المصغرة تصادما للمواطنة وأشباهها أو أشباحها المغتربة.

لم تستطع الحواجز الجغرافية بأجناسها البشرية أن تمنع عولمة الموسيقى. كذلك التشكيل. وان ارتبط المتحف أولا بالتشكيل واشتهر بصفته قبل غيره من الأنشطة الثقافية الإنسانية. فان الروسي والأسباني والهنغاري والبولوني والفنزويلي والايطالي والنمساوي والفرنسي وغيرهم هم الذين أسسوا حداثة التشكيل العالمي بنكهة فرنسية. كذلك النرويجي هو الذي أسس التعبيرية الألمانية. مثلما اسهم الياباني والجغرافيا المغربية في الانطباعية. والأفريقي في التكعيبية، والفرنسي والبولوني والنمساوي وغيرهم في الحداثة وما بعدها الأمريكية. الحراك الجغرافي الثقافي(المهاجر!) استوطن الثقافة مواطنا من الدرجة الأولى بامتياز. وفقد صفة غربته الجغرافية والأثنية لمصلحة مفهوم الإنسانية الأشمل. النتاج الثقافي الأنسانوي اختلط بصيغة الاندماج المثلى. ونحن بانتظار أن يحدث ذلك لكل نشاط إنساني آخر. سواء في سوق العمل أو الأنشطة الحياتية الأخرى وبهاجس انتفاء مفهوم الهجرة(غربة) لمصلحة الجيرة والاختلاط الإيجابي المثمر وبعيدا عن كل تابو معيق. وان كان المتحف الاوروبي المكرس الهجرة وثائق مغتربة قابلة للكشف ، فنحن مكشوفون وبكل وضوح في زمننا المعلوماتي هذا. وان كان بنك معلومات. فالمعلومات متوفرة في دوائر الدولة. لكنه إن اشتغل على مفاصل الثقافة بنية العولمة الثقافية الإنسانية. فسوف يبقى يشكل عنوانه الاغترابي إشكالية مفهوميه ملتبسة قابلة لتفسيرات عدة سواء ايجابية أو سلبية محكومة بنوازع القبول والرفض الشخصي والجمعي. وما اكتضاض متاحف الهجرة في اوروبا من دون بقية العالم إلا تأكيدا لصفة الغربة وانشغال الذهنية الاوروبية باشكالياتها نهج يكرس القلق هاجسا تنافذيا تداوليا يمانع صيغ إقصاءه لمصلحة انفتاح سلوكي وثقافي يرنو إلى فضاءات أكثر حميمية.